السلم العالمية حلم الأبد

للأستاذ توحيد السلحدار بك

جاء في (العدد ٥٩٥) من «الرسالة» مقال ظريف للدكتور أحمد فؤاد الأهواني عنوانه « السلم العالمية حلم قريب الأمد » .

وليس هذا من المستغرب : فإن الآراء تختلف ، وكثيراً ما أيّد الناس أحبها إليهم ، أو أقربها إلى لون ثقافتهم ، أو أصلحها لسياستهم . وقد نشط القائلون باتجاه الإنسانية نحو السلم العالمية أو بقربها بعد الحرب الكبرى السابقة ، ومنهم مثلاً : ديڤز[1] ، وكرنيجو[2] ، وويلز[3] الذي يصف بكتابه المشهور « سيرَ الإنسانية العظيم نحو وحدة عالمية » . وهذا هو مذهب الدكتور . وموضوعه كثير الأبواب والأصول ، متشعب الأطراف والحواشي ؛ وإيفاء بيانه وأدلته يملأ سِفراً فزائداً ، ولا طائل وراء الإطالة فيه

يقول الدكتور في فاتحة احتجاجه : « لا شك أن أحداً من الدول المشتركة في هذه الحرب القائمة لم يكن يرغب في إثارتها » لكنه يقول في منتصف مقاله : « تشيع العقيدة في نفس بعضها (الدول) أنها أقوى من غيرها بأساً وأسمى عقلاً وأرفع منزلة وأوسع علماً . ولهذا وقعت الحرب الحالية لانقسام العالم إلى دول عظمى وامبراطوريات كبيرة تتنازع على السيادة والسلطان »

عجباً ! لم ترغب دولة في هذه الحرب ، وقد نشبت ، إذ اعتقد بعض الدول أنه أقوى من غيره ، فنازعه السيادة ، ومَن أراد السيادة أراد الحرب . أفلا يبدو أن في هذا الكلام تناقضاً ينتفي به معنى الجملة الأولى منه ؟ وفي الجمل التالية إشارة واضحة إلى ألمانيا ، إذ المعروف أنها ابتدأت بالاعتداء على غيرها وأرادت أموراً حققتها بالقوة وهي عالمة بأن إرادات أُخَر تعارضها . وقد علّمها كلاوزڤتز[1] أن غرض المحارب هو إخضاع إرادة

(١) دافيد ديڤز (Daveid Davies) ، في كتابه المسمى « مشكلة القرن العشرين » (Le Problème du XXs Siècle) .

(٢) مريانو . هـ . كرنيجو (Mariano H. Cornéjo) وزير الأرجنتين وعضو مجلس جمعية الأمم سابقاً ، في كتابيه : « توازن القارات » و « الكفاح للسلام » .

(L. Equilibre des Continents. 1932 et La Luite pour La Paix. 1934), chez Félix Alcan.

(٣) هربرت جورج ويلز (Herbert George Wells) في كتابه المسمى « خلاصة التاريخ العام » .

(Esquisse de l' Histoire universelle) .

(١) شارل ده كلوزڤتز (Charles de Clausewitz) القائد الكاتب الحربي البروسي والكلمة في كتابه عن الحرب ، وهو معروف معتبر

ما تجده عند اليونان والرومان والعرب على السواء ، فما السر في ذلك ؟ يخيل إليّ أننا نجد الجواب في أمرين : أولهما : أن الأمم لا تحيا بالثقافة النظرية فحسب ، وإنما تحيا أيضاً بتقاليدها . وثانيهما : أن للثقافة النظرية نوعين من النشاط : نشاط هدم ونشاط بناء . فعند ما يسبق التفكير الفردي التقاليد ويأخذ في تناولها بالبحث ومناقشة الأسس ، لا بد من أن يقوضها ، لما هو معروف من أن كثيراً من التقاليد لا تقوم على أسس نظرية قوية بل تستند في الغالب إلى مواضعات اجتماعية خلقتها عصور موغلة في الظلام . وإذا كان العقل قادراً على الهدم فهو أقل قدرة على البناء ، وبخاصة بناء التقاليد ، وتلك لا يكفي في تدعيمها النظر المجرد بل لا بد من أن تطّرد بها الحياة حتى تنزل من الناس منزلة العادات الآلية ، وهذا أمر يحتاج إلى زمن طويل . وهكذا نفس انحلال الأمم : عقل يهدم ثم لا يستطيع لساعته أن يقيم بناء على الأنقاض وإذا كان العقل يقوض من دعائم الأمم ، فإن ذلك لا ينبغي أن يصرفنا عن تثقيفه ، فهو ليس منبع الشر وإنما منبعه أنه لم يثقف عند كافة أفراد الأمم المنحلة ، بل عند نفر قليل منها هم الذين قوضوا التقاليد . والتقاليد في الحق ليست من ضرورات الحياة الاجتماعية إلا بحكم أنها تحل عند غير المثقفين محل النظام العقلي والروح العلمية اللذين أشرنا إليهما ، وعند ما تستطيع أمة من الأمم أن تدعى أن كل فرد من أفرادها يملك ذلك النظام وتلك الروح فلن يرهبها عندئذ أن تضيع تقاليدها

وهكذا نستطيع أن نخلص إلى أن الثقافة الحقيقية دعامة قوية من دعائم الأخلاق في حياة الأفراد وحياة الأمم على السواء ، وإنما تأتي الكوارث عند ما نتخبط في فهم معنى الثقافة ومدى انتشارها بين الأفراد الذين يكونون أمة واحدة

الثقافة ضوء ولا بد للضوء من أن يبدد الظلمات .

محمد منصور
المحامي

العدو لإرادته هو . ولِـكليمَنصُو[1] قوله : « سواء كانت الحرب استراحة من ملهاة السلم ، أو كان السلم استراحة من مأساة الحرب ، يبقى مقرراً أننا نقبل معاناة محنها الدامية ، حتى إننا نَنشِيدها ، ويسرنا فوق ذلك أن نفخر بها » . ولا حاجة إلى مزيد بعد أن جاء المحتج بدليل ونقيضه فى آن معاً

ثم يقول الدكتور : « إن أصحاب العروش وذوى التيجان وأقطاب الدول والزعماء المحركين للشعوب ، يتنصلون من تبعة الحرب ، ويتبرأون من إعلانها ، فلا شك أن هذا دليل يحمل فى طياته النزعة القوية إلى السلام »

والصواب الذى يستقيم ههنا مع حقائق الواقع فى الإنسانية إنما هو أنهم « يتبرأون » ستراً لطمعهم وأغراضهم ، و « يتنصلون » دفعاً للتبعة إن هم قُهروا ، وتبريراً لجشعهم وإذلالهم عدوَهم إن هم قَهروا ، وتضليلاً عن سَوقهم الأممَ إلى المجازر وعن سُبل سياستهم ؛ ولم يكونوا يوماً لينزعوا إلى « السـلام » حين يخالف مصالحهم الحيوية وهم قادرون على الحرب ، أو يحول دون مطامعهم الحقيقية ، شخصية كانت أو قومية . فليس يصح فى الأذهان أن ما تقدم دفعه من الكلام « يبشر بتحقيق هـذا الحلم » ، كما يظن الدكتور وإن قال : « ستقع الحرب فى الجيل المقبل .. وقد تقع بعد جيل آخر » ، ليس غير

ثم رأى الدكتور فى نظرته إلى أسباب الحرب « أن ذكر طبائع الفرد وخصائصه ... بصدد حرب بين دولة وأخرى » حجة نفسية لا تستقيم ، لأن « طبائع الجماعة تختلف عن طبائع الفرد كما هو معروف لـكل من درس علم الاجتماع »

لـكن عندنا دكتور آخر كتب مرة أن الآراء التى سمعها « من أساتذة السربون فى علم الاجتماع وعلم النفس » هُراء . وما التذكير بهذا التقرير إلا لتنبيه من قد يحب أن ينعم النظر فى العلمين ليذكرهما أو يعتبرهما ، ويرى هل يتحقق أنهما عند ذكر أسباب الحرب ، لا يسمحان بالجمع « بين الدوافع النفسية فى الفرد وبين العلاقات الدولية وتنافر مصلحة الجماعات » . فإن الذى يجهلهما ، أو يقرأ كلاماً فيهما ويفوته فهمه كل الفهم ، قد يظن أن للأفراد ، خصوصاً فى الأمم الحية المتعلمة ، عاطفة وطنية ، وحساسية قومية ، وآراء مشتركة بينهم ، وشعوراً بالمصلحة العامة ، ملاحَظاً فى كلامهم واستعدادهم للدفاع عنها ، وأن الرأى العام وإن كان دون الرأى الفردى أو أكثر منه تعرضاً للخطأ ، يؤثر تأثيراً قوياً فى الحـكام والزعمـاء ، لأن البيئة تؤثر فى الأفراد كما تتأثر منهم ، وأن الأنانية مَرَدُّها الأخير فى التحليل النفسى غريزتا حفظ الذات وحفظ الجنس ، وإذن فهى الأساس العميق فى الفرد وفى الجماعة ، سواء ظهرت أو سترتها التربية والآداب . زد أن الإنسان منذ ظهر على هذه الأرض قد جعل فخره فى توسيع معاركه وزيادة أخطارها ، وهو يرفع عقيرته بالسـلم ، بل يخيل إليه أنه يريد أن يعيش فيه ، ولـكنه لا يريده بشدة كافية لحفظه ، والتزاحم الطبيعى الشامل يحتم تضاد القـوى ، ولو خفف الإنسان بعض أساليبه . أما الأحلام الـكمالية ، فإنما قربها فى الـكلام وشبه المنام

يقول الدكتور : « الدليل على نقض تلك الحجة النفسية نفور الجند فى هـذه الحرب الحاضرة » وهم يحاربون ، لأنهم « جماعات وكتل بشرية تترك فى الميادين » .

يريد ، على ما يبدو ، أن الجندى النافر يسيطر عليه روح الجماعة فى هذه الـكتل فينساق معها إلى المحاربة . وهذه حجة لا بد أن تكون حقيقة علمية دقيقة ، لا يدركها إلا كل من درس علم الاجتماع . لـكن الذى لم يدرس قد يظن أن روح الجماعة ، وإن كان دون روح الفرد ، يكون أحياناً أنبل من أرواح أفرادها ، كروح الجمعية الوطنية فى الثورة الفرنسية الـكبرى ، إذ أعلنت الجمعية حقوق الإنسان ، مثلاً ، ونزل النبلاء فيها عن ألقابهم ومميزاتهم . وقد يعجب القارئ لروح أولئك الجنود المتكتلين ، وهو ناتج من أرواحهم النافرة من الحرب والنافر بالضرورة من هذه الحرب ، كيف يدفعهم إليها وهم كتل مسلحة متجمعة فى الميـدان وفى المسكرات ، فى وسعها العصيان بروح الـكتلة المسيطر

هذا ، والأمم مجاميع أفراد ، والفرد يؤثر فى البيئة ويتأثر منها ، كما ذكر آنفاً ، والحياة ميدان قتال . فالقبائل ليس فيها نظام الحـكومات والجندية ، وإن كان الاحتكام عنـدها إلى شيوخها ، وعادتها الغزو ، يجمع له الأفراد مختارين للسلب والسبى ، وطلب المرعى والماء ؛ وشيمة هؤلاء الأفراد المنازلة وأخذ الثأرات المنيمة . والذين فتحوا الولايات المتحدة الأمريكية من محيط إلى محيط ، تقاتلوا فيما بينهم وكل منهم يحمى أرضه ويوسعها ،

(١) جورج كليمنصو (Georgea Clemenceau) ، الطبيب ، الـكاتب ، الصحافى ، السياسى ، الوزير الفرنسى المشهور ؛ والجملة بالصفحة ٤٧٣ فى الجزء الثانى من كتابه الفلسفى « فى مساء الفـكر » . (Au Soir de la Pensée) .

وقاتلوا الهنود والحيوان أفراداً ثم جماعات قبل أن ينتظموا ولايات منفصلة فمتحدة . وما القول فى المرتزقة قديماً والمتطوعين حديثاً من أمريكيين وبريطانيين وسواهم ، كما تطوع كثيرون لفرنسا فى حرب سنة ١٨٧٠ ؟ وأرض الأهل حيث يفتح الفرد عينيه لنور الحياة بين قلوب تتحنن عليه أرض تحببه إياها وتسمو به فى كل أمر حتى يضحى بنفسه وبذوى قرباه فى سبيل وطنه إرضاء لمعنى مثالى فى فؤاده لا يقبل البحث . والأمثلة وافرة : رجال المقاومة والعصابات الأهلية فى فرنسا وپولونيا وغيرهما ، والذين يفرون من الأسر ، ويركبون الأهوال فى سبيل العودة إلى صفوفهم مختارين ، والذى يُقطع نصفه فى الحرب فيخرج من المستشفى مُلحًّا فى طلب طائرته ليعود بنصفه الباقى إلى القتال ، والحال النفسية البادية على أوجه الجنود من شتى الأقطار وهم آتون غادون أمام أعين الناس ، وهى حال لا تدل على تأفف أو استياء ، بل تدل على الارتياح ، واحتشاد الأهالى فى الثورات والحروب الأهلية — وهى فى الإنسانية أكثر من الحروب الدولية — لمحاربة السلطات القائمة والجيش بما تصل إليه أيديهم من الآلات

لكن هناك « أبلغ دليل فى هدم كيان » القول « بحب الكفاح وتغلب الغريزة والشهوة والأنانية »

ذلك الدليل الأبلغ فى نظر الدكتور ، هو « أن الأفراد يعيشون فى داخل الدولة الواحدة ... وتسود فيهم بطبيعة الحال غرائز الكفاح والأثرة والمغالبة والنزوع إلى السيطرة والسلطان (كذا) ، ومع ذلك تعيش هذه الجماعة الواحدة كخلية النحل ... دون أن تقع بينهم معارك دامية ، إلا ما يحدث من الخصام المعروف بين الأفراد الذى يحله القانون ويقتضيه الأمن والنظام . والبوليس والقضاء كفيلان بضبط الأمن وحفظ النظام »

فلا يتوهمن متوهم ، بعد هذا الدليل ، أن تضارب فردين ، أو جماعتين ، أو قريتين ، ولو قتل أناس منهم — لسبب كالغيرة مثلاً أو السطو أو الانتخابات الديمقراطية — يُعد « معركة دامية » ، إنما هي تضارب داخل حدود الدولة ؛ وإن أبطل القضاء والبوليس ، أى القوى المانعة الرادعة ، الدائمة وجوباً داخل « خلية النحل » ، فإن أفرادها لا يتقاتلون بدوافع جبلتهم البشرية لتغيرها بالمدنية ، حتى أصبحوا نافرين من الاقتتال ، لا يحاربون إلا مكرهين فى ميادين الحروب الدولية . أما ظلم ذوى القربى وشتى الجرائم التى يدرك أولا يدرك البوليس والقضاء مقترفيها ، فإنها أمور ليست فى شىء مما يدل على أن الفطرة البشرية لم تتغير ذلك التغير ، وإن كان مما يُسلَّم به الدكتور أن الأفراد داخل الدولة « تسود فيهم غرائز الكفاح والأثرة والمغالبة والنزوع إلى السيطرة والسلطان » ؛ إذ أنه يقول : « قد اقتضت الحضارة والمدنية أن توجه هذه النزعة إلى كفاح الحياة والتغلب على عقبات المعيشة وتذليل البيئة المحيطة بالإنسان وتسخيرها لمصلحته ودفع عدوان الأمراض والأوبئة »

فكأن الحكام أوشكوا أن يصبحوا حكماء ، والمحكومين أن يصبحوا قديسين ! ذلك هو ما يؤخذ من تطبيق علمي النفس والاجتماع فيما يبدو من كلام الدكتور . غير أن كليمنصو يقول : « إن الحاكم لا تستطيع أن تشفى الناس من اقتراف القتل فى السلم ... ومنذ أقدم الأزمان إلى أيامنا هذه ، لم نعرف بعدُ غيرَ الدم كفّارة عن الدم ؛ والكلمة الأخيرة لمدنيتنا صاحبها الجلاد على ما يفهمنا جُزيف دُه مِسْتر[1] »

على أساس الكلام الذى تقدم النظر فيه ، وهو أساس ليس يتحمل ما شُيِّد عليه ؛ يقول الدكتور : « الحرب تقع بين الدول لا بين الأفراد » ؛ « فالمسألة فى السلام هى خضوع الجماعة لحكومة واحدة ونظام واحد ، لأن الحرب تقع بين الدول لا بين الأفراد ؛ فهل يصبح العالم بأسره خاضعاً لحكومة واحدة ، وتتحول النزعة الوطنية إلى دولة واحدة وعالم واحد ونظام واحد ؟ » ؛ ثم يجيب عن السؤال بعرض الأمور التى يراها خطوات فى سبيل « توحيد العالم » ومنع الحرب ، لأن « العلة الأساسية فى الحروب هى انقسام العالم إلى دول تنطوى على نفسها وتحتفظ كل واحدة منها بشخصيتها المستقلة »

وهذه حجة وهمية : فالدولة العالمية حُلم قديم تغنى به فريق من عشاق السيادة الشاملة إرضاء للشهوات ، لا توخيا لخير الإنسانية ؛ وهو كذلك حلم الشيوعية ، وقد يكون حلم الشيوعى عن يقين أو غير يقين . مع ذلك يقول الدكتور إن « الخطوات التى يخطوها العالم فى سبيل التطور والوحدة خطوات سريعة جداً (كذا) هى التى تجعلنا نقول إن السلم (العالمية) قريبة الآن »

فهل يُسلِّم الناس بأن الإنسانية قد أصبحت على باب دولة الفارابى المثالية الشاملة للأرض المكونة بأسرها ، كما صورتها

(١) يوسف ده مستر (yoseph de Maistre) فيلسوف فرنسى مشهور . وكلام كليمنصو بالصفحة ٤٤٧ فى الجزء الثانى من كتابه المذكور فى هامش سابق .